

رثاء الأمام الحسين رسالة عقدية

يعد الرثاء أحد أقدم أغراض الشعر العربي ، ويرتكز على ذكر سجايا الميت وتعداد حسناته وتفصيل ما جرى عليه معبرا فيه الشاعر بمشاعروخلجات اللوعة والحزن على فقد من يرثي . ويعرف الرثاء بأنه (الندب) و (التآبين) (والعزاء) ، فالندب " يُصوّر وقع المصاب في مخيلة الشاعر" ، وتفجّعه على المرثي ، أمّا (التآبين) ، فهو " تعداد محاسن الميّت وذكر مزاياه ومكانته الاجتماعية " و (العزاء) يقصد به " المواساة ومشاركة وتخفيف الأحزان وتهوين المصيبة على أهل الفقيد "

وأصدق الرثاء ما كان صادراً عن القلب، وما كانت الفجیعة فيه أليمة شديدة فليس أشد من فجیعة المسلمين بالحسين وما جرى عليه وعلى أهله وأصحابه في كربلاء، وامتزج ذكرورثاء الأمام الحسين بالعقيدة وصميم المعتقد الذي يوضحه قول الإمام جعفر الصادق في قوله "من قال فينا بيتاً من الشعر بنى الله له بيتاً في الجنة" وقوله " ما من أحد قال في الحسين شعراً فبكى أو أبكى إلا أوجب الله له الجنة وغفر له " ، الأمر الذي من أجله يساهم الكثير من الشعراء الماضين والمعاصرين في ندب الأمام الحسين ورثائه .

وفي رثاء الإمام الحسين (ع) يتعدد الأداء بين (الندب) و (التآبين) (والعزاء) لأن سليقة الشاعر تجود بما يختلج في قريحته من التفجّع على إمامه المعصوم والنوح عليه شعرياً ، ويجد فرصته السانحة لكي يؤبن صاحب المصاب بشمائل وفضائل فتأبين الميت إنّما هو بمثل ما كان يمدح في حياته " وهنا تتطابق المرثية والمدح .

وللشعراء دوراً تاريخياً رئيس في بقاء ذكرى استشهاد الإمام الحسين منذ استشهاد (سنة 61هـ) ذاكرين فاجعة وتفاصيل وقعة الطف المؤلمة ، وقد كان الشريف الرضي يقيم مأتماً في كل عام ينشد فيه قصيدة يرثي فيها جده ويذكر مصيبته .

وتؤكد الكثير من المصادر والكتب التاريخية أن البدايات الأولى لرثاء الحسين كانت قصائد نظمها بعض الشعراء باعتبار الشعر في تلك الفترة أهم وسيلة إعلام يصل تأثيرها إلى جميع الناس وقد عرف أهل المدينة بمقتل الحسين لأول مرة عن طريق الشعر فقد قيل إن الإمام علي بن الحسين زين العابدين صادف في الطريق عند رجوع موكب السبايا من الشام متوجهاً إلى المدينة الشاعر بشر بن حذلم، فقال له: يا بشر انطلق وانع الحسين فما كان منه إلا أن عصب رأسه بعصاة سوداء، وعصب فرسه برباط أسود، وعندما وصل المدينة أخذ يطلب من الناس التجمع حوله ناغياً لهم الحسين بقوله:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها *** قتل الحسين فأدمعي مدرار

الجسم منه بكرلاء مضرج *** والرأس منه على القناة يدار

يا أهل يثرب شيخكم وإمامكم *** هل فيكم أحد عليه يغار

وذكر في كتاب «الأغاني» للأصفهاني قصيدة رثاء مؤثرة ومفعمة بالعاطفة لزوجة الإمام الحسين الرباب بنت امرئ القيس بن عدي الكلبي تقول فيها:

إن الذي كان نوراً يستضاء به *** بكرلاء قتيل غير مدفون

سبط النبي جزاك الله صالحاً *** عنا، وجنبت خسران الموازين

قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به *** وكنت تصحبنا بالرحم والدين

وأختلف آراء المؤرخين والباحثين في أول من رثى الإمام الحسين فمنهم من يرى أن سليمان بن قتة هو أول من رثى الإمام الحسين وذهب آخرون إلى أن عقبة بن عمرو السهمي كان له السبق في رثاء الإمام الحسين ، ويذكر بأن سليمان بن قتة العدوي قد رثى الإمام الحسين بعد ثلاث سنوات من مقتله عندما مر بكرلاء قائلاً:

مررت على أبيات آل محمد *** فلم أرها أمثالها يوم حلت

فلا يبعد الله الديار وأهلها *** وان أصبحت منهم برغمي تخلت

وكان الإمام الصادق عليه السلام قد قال في تعلم الشعر " علموا أولادكم شعر العبيدي فإنه على دين الله "

وقد نظم الشاعر سفيان بن مصعب العبيدي قصيدة في رثاء الإمام الحسين عليه السلام مطلعها

لقد هد ركني رزء آل محمد *** وتلك الرزايا والخطوب عظام

وأبكت جفوني بالفرات مصارع *** لآل النبي المصطفى وعظام

وأضحيت لا ألتذ طيب معيشتي *** كأن على الطيبات حرام

وقد رثى الشعراء الإمام الحسين في كل عصر وكل جيل بكل لسان في جميع الأزمان " فالحسين هُوَ سيد شباب أهل الجنة بنص النبي الأكرم محمد بن عبد الله (ص) وقد قال فيه : " حسين منِّي وأنا من حسين ، أحبُّ الله مَنْ أحبَّ الحسينَ ، حسينٌ سبط من الأسياط " () .

ومن أبرز شعراء الرثاء الحسيني في العصر الأندلسي صفوان التجيبي وابن دراج القسطلبي وأبو البقاء الرندي وابن أبي الخصال وغيرهم وحذا على نهجهم الشعراء الفاطميون والحمدانيون والبويهيون والمزيديون والإدريسيون والموحديون ومن أبرز الأسماء في هذه المسيرة الشريف الرضي، والمرتضى، والصاحب بن عباد، والزاهي، والصنوبري، وسبط بن التعاويذي، وابن المعلم الواسطي، والشواذ الحلي، والراوندي، ومهيار الديلمي، وكشاجم، وابن المقرب العيوني وغيرهم الكثير.

وشكل شعر الرثاء الحسيني الفن الأكثر بروزاً في الأدب الهندي وهناك أسماء كثيرة من شعراء الرثاء الحسيني من كبار أدباء الهند، وكذلك في الأدب الفارسي والتركي والباكستاني

ومن شعراء القرن الأول دعبل الخزاعي الذي نظم قصيدة شجية في رثاء الإمام الحسين عليه السلام وكان معاصر للإمام الرضا عليه السلام

أَفَاطِمُ لَوْ خِلَاتِ الْخُسَيْنِ مُجَدِّدًا *** وَقَدِّمَاتِ عَطْشَانًا بِشَطِّ فُراتِ
إِذَا لَلَطَمَتِ الْخَدَّ فَاطِمٌ عِنْدَهُ *** وَأَجْرِيَّتِ دَمْعُ الْعَيْنِ فِي الْوَجَنَاتِ
أَفَاطِمُ قَوْمِي يَا ابْنَةَ الْخَيْرِ وَأَنْدُبِي *** نَجُومَ سَمَاوَاتِ بَأْرُضِ فَلَاةِ
ومن شعراء القرن الأول الذين نظموا قصائد في رثاء الإمام الحسين إسماعيل الحميري في فقد رثى الإمام
الحسين في حضرة الإمام الصادق وقال فيها:

أُمُرُّوْ عَلَي جَدَّتِ الْخُسَيْنِ *** فَقُلْ لِعَظْمِهِ الزَّكِيَّةُ
يَا أَعْظُمًا لَزَلَّتْ مِنْ *** وَطَفَاءِ سَاكِبَةِ رَوِيَّةُ
مَا لَذَّ عَيْشُ بَعْدَ رَضٍّ *** كِ بِالْجِيَادِ الْاَعْوَجِيَّةُ

ومن شعراء القرن الأول الكميث بن زيد الاسدي فقد نظم قصيدة من قصائده المعروفة «بالهاشميات» التي
بدأها بمدح آل البيت مطلعها

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب *** ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب
ثم قال

ومن أكبر الاحداث كانت مصيبة *** علينا قتل الأدياء الملحب
قتيل بجنب الطف من آل هاشم *** فيالك لحماً ليس عنه مذب

ومن شعراء القرن الأول ابو الاسود الدؤلي فقد نظم قصيدة رثاء في الامام الحسين (ع) ومن أصيب معه من
بني هاشم (عليهم السلام) ومطلع أبياتها

أقولُ لعاذِلَتِي مَرَّةً *** وَكَانَتْ عَلَي وَدِّ نَا قَائِمَهُ
إِذَا أَنْتِ لَمْ تُبْصِرِي مَا أَرَى *** فَبِينِي وَأَنْتِ لَنَا صَارِمَهُ

أَلَسْتَ تَرَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ *** قَدْ أَفْنَدْتَهُمْ الْفِئَةُ الظَّالِمَهُ
ومن بين شعراء القرن الثاني الهجري الذين رثوا الإمام الحسين إمام المذهب الشافعي محمد بن إدريس

الشافعي الذي رثى الحسين بقصيدة عبر فيها عن حزنه على قتل الحسين ظلماً مطلعها:

تَأَوَّهَ قَلْبِي وَالْفَوَادُ كَثِيبُ *** وَأُرِّقُ نَوْمِي فَالْسُّ هَادُ عَجِيبُ
فَمَنْ مَبْلَغُ عَذِّي الْحَسِينَ رِسَالَةً *** وَإِنْ كَرِهَتْهَا أَنْفُسُ وَقُلُوبُ
ذَبِيحُ بَلَا جُرْمٍ كَأَنَّ قَمِيصَهُ *** صَبِغُ بَمَاءِ الْأُرْجُوانِ خَضِيبُ

ومن شعراء القرن التاسع السيد جعفر الحلبي (قدس سره) عاش في النصف الثاني من القرن التاسع نظم
قصيدة سميت بالميمية وقال فيها

وَجَّهَ الصَّبَّاحِ عَلَيَّ لَيْلٌ مُظْلَمٌ *** وَرَبِيعُ أَيَّامِي عَلَيَّ مُحَرَّمٌ
وَاللَّيْلُ يَشْهَدُ لِي بِإِزْيِ سَاهِرٍ *** إِنَّ طَابَ لِلنَّاسِ الرَّقَادُ فَهَوَّ مَوَا
مِنْ قُرْحَةِ لَوْ أَنْزَلَهَا بِيْلَامٍ *** نُسِفَتْ جَوَانِيهِ وَسَاخَ يَلَامٍ

ومن شعراء القرن التاسع الشاعر ابن العرندس الحلبي صاحب الرائية المشهورة في رثاء الإمام الحسين

(عليه السلام)، ومنها قوله (من الطويل):

أَيَقْتَلُ ظَمَانًا حَسِينًا بِكَرْبَلَا *** وَفِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَنْامِلِهِ بَحْرًا

ووالده الساقى على الحوص في غدٍ *** وفاطمة ماء الفرات لها مهرٌ

فيا لهف نفسي للحسين وما جنى *** عليه غداة ألطف في حربته الشمرُ

واستمر العديد من الشعراء على هذا النهج وصولاً إلى القرن التاسع عشر الذي عدا فيه رثاء الإمام

الحسين وأهل بيته من أكثر اهتمامات الشعراء الذين لا يحدون عنها

وأضحت القصائد الكثيرة التي تناولت استشهاد الأمام الحسين في واقعة كربلاء على مدى قرون طويلة

تراثاً أدبياً معبراً عن مفهوم أن التاريخ يتحرك باستمرار في سياق متصل، فالإرث العظيم الذي حملته

أدبيات القصائد الحسينية وما نظم من شعر له قيمة عقدية ثرية تعيد أحياء المبادئ وتسبب التراث لتشكّل

صلة نابضة حية بين الماضي والحاضر، وليكون الأمام الحسين عليه السلام أكثر حضوراً وإشراقاً في

وجدان الأمة جيلاً بعد جيل، فانصهر صوت الشاعر مع فاجعة استشهاد الأمام الحسين عليه السلام ليعبر من

خلالها عن ضمير الأمة .

وبرز في رثاء الأمام الحسين تطوراً أدبياً في المراثي والقصائد التي نظمت في أهل البيت وبدأت القصيدة

الحسينية في التناسق الأدبي حتى أخذت في العصر العباسي طابع مميزاً يرسم ملامح بناء قصيدة متكاملة

الأجزاء تمتاز بالموضوعية

ومن شعراء القرن الثالث عشر الهجري أبدع الناعي علي بن فايز الأحسائي البحراني المولود في حي

الرفعة الشمالية في رثاء الأمام الحسين وتميز شعره بالحواريات وأسس ابن فايز مدرسة شعرية تميز بها

وتفرد تعرف بـ «الفائزيات»، ومن قصائده ما قال

عاشور هَلَّ اِهْلَالَه

عاشور هَلَّ اِهْلَالَه ..

هَلَّتْ ادموع محمد

من شاف هلَّ اِهْلَالَه

ومن الشعراء المعاصرين تألق الشاعر العراقي الكبير الراحل محمد مهدي الجواهري في قصيدة "أمّنت

بالحسين" ألقاها في ذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع) عام 1947 وكُتبت خمسة عشر بيتاً منها بالذهب على

الباب الرئيسي من مرقد الإمام الحسين (ع) في كربلاء

فِدَاءٌ لِمَثْوَاكَ مِنْ مَهْجَعِ *** تَنْوِـرٍ بِالْأَبْلَاجِ الأروَعِ

بأعقبَ من نَفَحَاتِ الجِنَانِ *** رُؤُوسًا وَمِنْ مَسْكَهَا أَضْوَعِ

وَرَعِيَّاتٍ لِيَوْمِكَ يَوْمِ "الطُّغُوفِ" *** وَسَقِيَّاتٍ لِأَرْضِكَ مِنْ مَهْرَعِ

ورثاء الحسين شهد تحولاً وتطوراً في أداء الرثاء تمثل في ظهور ما يعرف بالرادود والمنشد الحسيني

ويعنى به الشخص الذي يقرأ الأشعار في الرثاء فيما يرتبط بأهل البيت عليهم السلام وخصوصاً في دائرة

فاجعة الإمام الحسين عليه السلام، وفي الغالب يكون ذلك في المجالس الحسينية ومجالس العزاء وتكون على صورة اللطم أو النعي والرثاء بصوت ولحن حزين.

وتشكلت ظاهرة الرادود الحسيني مع ظهور الشعائر الحسينية وهي الشعائر التي اعتاد الشيعة الإمامية الإثنا عشرية على ممارستها منذ قرون طويلة وتقوم تلك الشعائر على استحضار فاجعة أستشهاد الحسين بن علي، حفيد النبي ومقتله في واقعة كربلاء في العاشر من محرم سنة 61هـ .

وقد بدأت الشعائر الحسينية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري في زمن حكم سلاطين البويهيون فقد أتاحوا ممارسة طقوس العزاء الحسيني في كربلاء وفي غيرها من المدن العراقية .

وفي تلك الفترة ظهر الرواديد الحسينيون الأوائل فقد ذكر ياقوت الحموي في كتابه "معجم الأدباء" إحدى القصص العجيبة التي ترصد هذا الظهور حيث يقول الحموي إن أحد الرجال قدم إلى مجموعة من المجتمعين في أحد مجالس بغداد في سنة 364هـ. وقال لهم: "أنا رسول فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، فقالوا: مرحباً بك وأهلاً ورفعه. فقال: أتعرفون لي أحمد المزوق النائح؟ فقالوا: ها هو جالس، فقال: رأيت مولانا عليها السلام في النوم فقالت لي امض إلى بغداد واطلبه وقل له نج على ابني بشعر الناشئ (شاعر اسمه علي بن عبد الله بن وصيف البغدادي) الذي يقول فيه: بني أحمد قلبي لكم يتقطّع ... بمثل مصابي فيكم ليس يسمع". بحسب الرواية، كان الناشئ نفسه حاضراً "فلطم لطمًا عظيمًا على وجهه وتبعه المزوق والناس كلهم، وكان أشدّ الناس في ذلك الناشئ ثم المزوق، ثم ناحوا بهذه القصيدة في ذلك اليوم إلى أن صلّى الناس الظهر...!" وهكذا صار الناشئ وأحمد المزوق أول الرواديد الحسينيين في التاريخ.

وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين اشتهر الكثير من الرواديد الماضين ، كما واشتهر الكثير منهم في عصرنا الحديث بين البلدان والدول العربية في دولة العراق والبحرين وقطر وعمان والكويت وباكستان ولبنان ونيجيريا وإيران والأحساء والقطيف ، فمن العراق برز الرواديد القدماء حمزة الصغير وباسين الرميثي وأما من المعاصرين فقد برز جليل الكربلائي وباسم الكربلائي وأبو بشير النجفي وقحطان البديري ووطن النجفي ومن البحرين أشتهر السيد علوي أبو غايب وأبازر الحلواجي وجعفر الدرازي وحسين الأكراف وصالح الدرازي ومهدي سهوان وفاصل البلادي وعبد الأمير البلادي وجعفر القشعبي ومن دولة قطر أشتهر نزار فضل القطري، ومن الأحساء أشتهر صالح المؤمن، وعبد الحميد الدهنين، ومحمد بوجباره ومن القطيف أشتهر الرادود مصطفى المرهون، وزكي الفردان، ومن دولة عمان أشتهر الرادود حسين اللواتي، وطه اللواتي، ومرضى الخابوري، ومن دولة الكويت أشتهر الرادود محمد الحجيرات، ووليد المزيدي، ومن دولة لبنان أشتهر الرادود محمد حسين خليل، ومن دولة باكستان أشتهر الرادود نديم سرور، ومن نيجيريا أشتهر الرادود مصطفى عمر بابا، ومن دولة إيران أشتهر الكثير من الرواديد ومن أبرزهم الرادود سليم مؤذن زاده اردبيلي ومحمد صادق آهنگران ومحمد أرضي وحسين فخري وغلارضا كويتي بورومحمود كريمي ومحمد طاهري وسعيد حداديان وحسن خلع وحسين سيب سرخي والسيد مهدي ميرداماد ومهدي

وتتعدد الضوابط للرثاء الحسيني الذي يضطلع به الرادود في مراسم العزاء الحسيني ومن أهم تلك الضوابط على الصعيد الفقهي أن يخلو الأنشاد الحسيني من الغناء أو استعمال الآلات الموسيقية وفقاً لفتوى المرجع الديني السيد علي السيستاني ، كما أن هناك ضوابط أخرى لاتقل أهمية فيما يتعلق بمضمون القصيدة الشعرية ومنها أن تكون الأبيات الشعرية رصينة وتحمل رسالة عقائدية وفكرية وأخلاقية عالية المضامين بما يجسد منهج أهل البيت القويم ويحقق منطلقات الأمام الحسين الدينية وتطلع المرجعية الرشيدة وأن لاتحوي أبيات الشعر على مفردات تتضمن أساءة لرموز دينية وأستبعاد أي عبارات فيها إثارة للفتنة بين المذاهب الإسلامية وتجنب ذكر مفردات توحى للسامع بالغلو والتعصب أو تشويش الفكر واللبس عليه بما يمس العقيدة .

ومختلف أنواع الرثاء الحسيني الذي يضطلع به المنشدون الحسينيون (الرواديد) في كل أنحاء العالم يتضمن أن يشارك الرادود الحسيني في أداء القصيدة الحسينية بأشعار تحمل رسالة موضوعية وهادفة ومعبرة عن الحزن والمواساة لأهل البيت بمصائبهم الجلل ، فأدب رثاء الأمام الحسين يمتاز بأن الرائي الحسيني في أداءه لمراسم رثاء الأمام الحسين بطرح منهج الأمام الحسين الذي ينطوي على كل معاني البصيرة والرشد